الباب الثاني

نماذج نسائية ـ للقدوة ـ في القرآن والسنة

الفصل الأول :

نماذج نسائية ـ للقدوة الحسنة ـ

في القرآن الكريم .

الفصل الثاني :

نماذج نسائية ـ للقدوة الحسنة ـ

في السنة المطهرة .

الفصل الأول

نماذج نسائية ـ للقدوة الحسنة ـ في القرآن الكريم

في القرآن الكريم نماذج جيدة من النساء ، ونماذج سيئة ، والهدف من ذلك لفت الانتباه إلىٰ مسألة أن في النساء كما في الرجال نماذج ونماذج ، وما علىٰ الإنسان إلا أن يأخذ واحداً من النماذج ليسير في الطريق الذي سار عليه .

أما حديث القرآن عن النماذج السيئة ، فتلخص بعدد قليل ، وأهم تلك النماذج :

١ـ حمّالة الحطب ! !

فعندما جاء الأمر الإلهي إلىٰ رسول الله ﷺ بأن يصدع بالدعوة ، فقد انتهىٰ العهد السري وبدأ العهد العلني ، كما قال تعالىٰ :

﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ [الشعراء : ٢١٤ـ٢١٦] .

وصعد رسول الله جبل الصفا ، ونادىٰ القوم وبلغهم مسألة الدعوة ، فما كان من عمه إلا أن قال له : تبّاً لك سائر اليوم ، ألهذا جمعتنا ؟!

ووقتئذٍ كانت (رقية وأم كلثوم) بنتا رسول الله ﷺ متزوجتين من عتبة و عتيبة ابني أبي لهب ، فلما أنزل الله تعالىٰ في أبي لهب وزوجه سورة كاملة :

﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝٢ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ۝٤ فِى جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ﴾

[المسد : ١ـ٥] .

فحلفت أم جميل ـ حمالة الحطب ـ على ابنيها أن يطلقا بنات رسول الله ﷺ ، وراحت تحمل الأشواك والأوساخ وتضعها في طريق رسول الله ﷺ .

ثم أطالت لسانها عليه ، وصارت تشتمه وتهجيه ، من ذلك قولها : مُذمَّماً عصينا وأمره أبينا ودينه قلينا . . .

وبقيت على هذه الحالة حتى فارقت الدنيا ، فخسرت الدنيا والآخرة ﴿ فِى جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ﴾ ورحم الله الشاعر الأنصاري (الأحوص الدوسي) حينما قال في حقها :

ما ذات حبلٍ يراه الناس كلُّهم ... وسط الجحيم ولا يخفى علىٰ أحدِ

كلُّ الحبال ، حبال الناس ، شعر ... وحبلها وسط أهل النار من مسد

* * *

٢ـ زوجتا نبيّن في النار!!:

عندما تخون المرأة زوجها ، خاصة إن كان الأمر يتعلق بالعقيدة والدين ، فإن في المسألة شيئاً غير طبيعي ، مثال ذلك :

امرأة سيدنا نوح عليه السلام : فبدل أن تقف مع زوجها وهو يكافح ليلاً ونهاراً وسراً وعلانية من أجل قضية التوحيد ، بدل ذلك كله ، راحت تقرّب القرابين للأصنام : (ودّ ، وسواع ، ويغوث ، ويعوق ، ونسر) .

ورفضت دعوة التوحيد من زوجها ، وتصدّت لجهوده الدعوية ، وبذلت جهوداً كبيرة لإضلال الناس أكثر .

وذات يوم مرت على المكان الذي يعمل فيه نوح عليه السلام ، فرأت عجباً ، فسألته عن ذلك ، فأجابها : سأصنع سفينة كما أمرني الله تعالىٰ!!

وراحت تنشر بين قومها ـ وباستهزاء ـ أن زوجها يصنع سفينة لتسير في الصحراء!!

وجاء القوم ليروا حقيقة القصة ، وأطلقوا عبارات الاستهزاء والسخرية ، لكن : ﴿إِن تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ [هود : ٣٨ـ٣٩] .

وكان الطوفان ، حيث المياه تتفجر من الأرض وتنزل من السماء ، ففزعت زوجة نوح عليه السلام وهرعت إلى قومها الكفرة ، ودعاها زوجها إلى الركوب في السفينة ، لكنها عاندت واستكبرت مع ابنها كنعان ، فكانت النتيجة أن أغرق الله الكفرة ونجّى المؤمنين ، لتكون النتيجة خسارة الدنيا والآخرة . . .

وأما المثال الآخر : فهي زوجة نبيّ الله لوط عليه السلام ، الذي بُعث في قومه الذين اخترعوا قضية ما عرفها الناس في التاريخ ، إنهم كانوا يأتون الفاحشة في ضيفهم علانية وفي مجلسهم!!

وهذا ما عبرّ عنه القرآن الكريم علىٰ لسان نبي الله لوط :

﴿ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴾ [الأعراف : ٨٠ـ٨١] .

وأما زوجة لوط ، وقيل اسمها (واعلة ، وقيل : والهة) ، فكانت تقوم بإفشاء سرّ زوجها ، فكانت كلما جاءه أحد الضيوف ، تسرع إلىٰ قومها تخبرهم بذلك .

كما كان لها الدور الكبير في إبعاد الناس عن دعوة الحق ، والاستهزاء بزوجها ودعوته ، وإرباك الواقع الأمني له ولمن آمن معه . . .

وعندما لم يعد أي أمر ينفع معهم ، رفع الأكف إلى الله ﴿ رَبِّ ٱنصُرْنِى عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ [العنكبوت : ٣٠] .

وجاءت جنود الله لنصر نبيّه ، فلما دخلوا عليه ، أسرعت زوجه إلى القوم لإبلاغهم بذلك . وهرول القوم يريدون إتيان الفاحشة مع الضيوف ، ونهاهم لوط عليه السلام عن ذلك . . . ، لكن دون جدوى ، فحزن حزناً شديداً ، فقالت له الملائكة :

﴿ قَالُوا۟ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓا۟ إِلَيْكَ ۖ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ ۖ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ ۚ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ ۚ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴾ [هود : ٨١] .

وخرج لوط عليه السلام مع الذين آمنوا معه ، بينما كانت نتيجة قرى لوط وقومه وزوجه الدمار والهلاك حيث العذاب الدنيوي ، ثم نار جهنم وبئس المصير .

لكن مقابل هذه النماذج للنساء اللائي خالفن المنهج ، فكانت النتيجة في الدنيا قبل الآخرة عذاباً وخزياً ، مقابل ذلك هناك نماذج قرآنية للنساء اللائي سرن وراء كلمة الحق ، فكانت السعادة في الدنيا والآخرة ، من ذلك :

١ـ زوجة إبراهيم عليه السلام :

نموذج رائع يحمل خلق الإيثار للآخرين ، إنها (سارة) زوجة الخليل إبراهيم ، حيث إنها لم تنجب الولد ، فوهبت لزوجها خادمتها (هاجر) كي يتزوجها من أجل الولد!!

وشاء الله ذلك : ﴿ فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴾ [الصافات : ١٠١] وهو الذبيح إسماعيل عليه السلام ، لكن هل ترك الله هذا الموقف الرائع يمرّ هكذا دون مكافأة ؟

أبداً ، فعند الله لا يضيع مثقال ذرة ، وذات يوم وهي تخدم ضيفان زوجها ، جاءتها البشرىٰ بأن الله أذن بأن تحمل بالولد!!

لكن يا رب ، لقد بلغت من الكبر عتياً ، لقد تجاوزت سنّ اليأس ، فكيف يكون ذلك ؟ وولدت إسحاق عليه السلام ، وزاد الله في عمرها لتعيش إلى حيث تزوج إسحاق وأنجب يعقوب عليه السلام ، وفي ذلك يقول الله تعالى :

﴿ وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ ۖ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾ قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ

عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوٓاْ أَتَعۡجَبِينَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۖ رَحۡمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٞ مَّجِيدٞ﴾ [هود : ٦٩-٧٣] .

وفي الحكاية عبر ودلائل ، أهمها : مشاركة المرأة زوجها في خدمة الأضياف ، ومشاركتها معه في الهجرة من بلد إلىٰ آخر . . .

٢ـ آسية بنت مزاحم : امرأة فرعون :

مثل آخر ، من أمثلة القرآن ، وفيه القدوة والأسوة حول الثبات علىٰ الإيمان ، وتفضيل ما عند الله على ما عند الناس .

إنها آسية بنت مزاحم ، عاشت في القصر الفرعوني ، حيث العز والنعيم ، والملك و . . . !!

عاشت في بيئة الظلم الفرعوني ، لكن المشيئة الإلهية أرادت أن تسخر من فرعون ، فعندما أصدر أمره بقتل كل طفل ذكر خوفاً على كرسيه وعرشه ، ساقت العناية الإلهية موسىٰ إلىٰ فرعون ، لتحتضنه زوجته وتريد تربيته :

﴿وَقَالَتِ ٱمۡرَأَتُ فِرۡعَوۡنَ قُرَّتُ عَيۡنٖ لِّي وَلَكَۖ لَا تَقۡتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗا وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾ [القصص : ٩] .

ودار الزمن دورته ، فأعلنت آسية إيمانها بما جاء به موسىٰ عليه السلام .

وجنّ جنون فرعون ، وأعلن أنه سيقتلها أمام الناس جميعاً ، وصلبها في حرّ الشمس وسلط عليها أشد أنواع العذاب ، لكنها استهزأت ببطشه وسخرت بجبروته ، واتجهت إلىٰ الله الواحد :

﴿رَبِّ ٱبۡنِ لِي عِندَكَ بَيۡتٗا فِي ٱلۡجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرۡعَوۡنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِي مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [التحريم : ١١] .

كيف يحدث ذلك ؟ فرعون الذي ينادي أمام الناس : أنا ربكم الأعلىٰ! وزوجه تنادي الله الأعلىٰ أن يخلصها من كذب وزيف فرعون!!

وأمر بحمل صخرة ضخمة وأن ترمىٰ علىٰ جسدها لتحطم عظامها وتهشّم رأسها .

لكن المرأة الواثقة بما عند الله كانت تعطي الأجيال الدروس العملية في الثبات علىٰ الإيمان والصبر علىٰ المحن ؛ لأن هناك الجنة ، وهناك ما فوق الجنة : ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [التوبة : ٧٢] وهناك الأعلىٰ وهو رؤية نور وجه الله يوم القيامة . . . فرحم الله آسية ورضي عنها .

٣ـ (رحمة) نموذج الصبر!!

لئن كان المثل يُضرب بصبر أيوب عليه السلام ، فكذلك يجب أن يضرب المثل بصبر زوجه (رحمة) .

أجل ، لقد فقد أيوب عليه السلام الأولاد جميعاً ، وذهب المال كله ، وضعف الجسم وشحب اللون ، وفرّ الأصدقاء والأحباب عنه . . . !!

لكن أيوب كان صابراً ، وإلىٰ جواره (رحمة) الصابرة ، ثم زاد الامتحان صعوبة أكثر ، لقد جاءها الشيطان ووسوس لها : أين شباب زوجك ؟ أين صحته وماله ؟ أين النعيم والرفاه ؟ أين الرفاق و . . . ؟!

وتسلّل هذا الكلام إلىٰ نفسها ، فنقلته إلىٰ زوجها عليه السلام ، فغضب ، وقال : لا بدّ وأنها وسوسات شيطان ، يا رحمة! لقد بقيت في الصحة والرخاء مدة ثمانين عاماً ، فكيف أطلب من الله رفع البلاء ولم يمض عليّ في ذلك إلا بضع سنوات ؟!

ووالله لئن شفاني الله لأضربنك مئة سوط!

وسجد أيوب سجدة طويلة ناجىٰ بها الله وألحّ في ذلك : ﴿ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ [الأنبياء : ٨٣] فجاءه الجواب علىٰ عجل :

﴿ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾ ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴾ [ص : ٤١-٤٢] .

وشاءت عناية الله أن يعود أيوب عليه السلام إلىٰ شبابه وعافيته ، وعادت (رحمة) إلىٰ عافيتها وشبابها ، ليعيشا عيشة السعادة والهناء :

﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [ص : ٤٣] .

وعلّمه الله كيفية الخروج من قسمه ، وذلك بأن يضربها بحزمة فيها مئة عود ، وذلك لأنها مثالية في الصبر واحتساب الأجر : ﴿ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ ۗ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾ [ص : ٤٤] فرحم الله رحمة ورضي عنها .

٤ـ أمّ موسىٰ عليه السلام :

مثال آخر فيه دروس وعبر ، خاصة فيما يتعلّق بالرضا بقضاء الله تعالىٰ ، والاطمئنان بوعده ، والصبر علىٰ كل ما يأتي من الله .

كتب عليها القضاء والقدر أن تعيش في زمن الطاغية فرعون ، وعندما أخبر الكهنة والمنجّمون أن شاباً ذكراً سيكبر في القوم ويقضي علىٰ فرعون ، فأعطىٰ أوامره لجنوده بأن يقتلوا جميع الأطفال الذكور من بني إسرائيل .

وذات ليلة أحسّت (يوكابد ، يوخا) أنها حامل ، فخافت أن يكون الحمل ذكراً!!

وتشاء العناية الإلهية أن تضع ولداً ذكراً وهو موسى عليه السلام ، فكيف ستنقذه من يد جنود فرعون ؟ وكيف تحميه من الموت ؟

﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ [القصص : ٧] .

وإذا كان الوعد من الله ، فلا بدّ من التسليم لله ، ولا بدّ من الرضا بقضائه وقدره ، ووضعت وليدها في تابوت وألقته في البحر!!

﴿ فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ﴾ [القصص : ٨] .

وبالفعل اختلط في قلبها الحزن مع الشفقة ، والخوف مع الرضا ، فما كان منها إلا اللجوء إلىٰ الله الواحد :

﴿ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [القصص : ١٠] .

ووصل التابوت إلىٰ القصر الفرعوني ، وفتحت آسية التابوت ، فسطع نور عظيم من جبين الغلام ، ثم ماذا ؟ ﴿ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ ﴾ [القصص : ١٢] .

فرفض أن يرضع من أي ثدي غير ثدي أمه!! ، فأشارت عليهم أخته أن يعيدوه إلىٰ أمه لترضعه!! ﴿ فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ﴾ [القصص : ١٣] .

وصدق وعد الله ، ورضي عن أم موسىٰ وأرضاها .

٥ـ فتاة مدين (صفورة) وقوة فراستها :

نموذج آخر من حديث القرآن الكريم حول مشاركة المرأة الرجال في الأمورالعامة وما إلىٰ هنالك .

إنها ابنة نبيّ الله شعيب عليه السلام ، دخلت عليه ذات يوم ومعها شاب وسيم ، وقالت مخاطبة أباها :

﴿ يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ ﴾ [القصص : ٢٦] .

فقال شعيب عليه السلام : وما أدراك بقوته وأمانته ؟ فقالت : لقد رفع صخرة لم يستطع رفعها عشرة من الشباب ، فهو موسىٰ القوي .

وأما أمانته : فلما جئت معه إلىٰ هنا ، قال لي : سيري خلفي فإني أخاف أن يعبث الهواء بثوبك فأرىٰ ما حرم الله سبحانه!! فما هي بداية الحكاية ؟

عندما هرب موسىٰ عليه السلام من مصر ، ووصل ماء مدين ، وجد علىٰ الماء أناساً كثيرين ، ولاحظ أن القوي وحده هو الذي يستطيع أخذ الماء ، ورأىٰ من القوم فتاتين تقفان علىٰ جنب لا تستطيعان الوصول إلىٰ الماء ، فتقدم منهما وساعدهما :

﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ ۖ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا ۖ قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ ۖ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا ﴾ [القصص : ٢٣ـ٢٤] .

وعلىٰ غير عادة ، عادت الفتاتان باكراً ، فاستعجب والدهما ، وسألهما عن السبب ، فأخبرتاه عن شهامة الشاب ومساعدته إياها ، فأرسل ابنته (صفورة) لتفاديه :

﴿ فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ ۖ قَالَتْ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ﴾ [القصص : ٢٥] .

وأكرم الله (صفورة) على حيائها وعفافها بأن كانت زوجاً لنبي من أولي العزم ، و هو موسىٰ عليه السلام .

٦ـ المرأة التي اصطفاها الله تعالىٰ :

في القرآن الكريم تأكيد علىٰ مسألة المساواة بين الرجال والنساء ، حتىٰ في مسألة الاصطفاء ، نرىٰ ذلك لا يخصّ الرجال فقط ، قال تعالىٰ :

﴿ وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾ يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴾

[آل عمران : ٤٢ـ٤٣] .

وهكذا شملتها العناية الإلهية منذ الصغر ، حيث قبلها الله وأبعد عنها الشيطان ، وجعل نشأتها نشأة حسنة ، وأجرىٰ الكرامات علىٰ يديها ، قال تعالى :

﴿ إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ۖ وَإِنِّى سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [آل عمران : ٣٥ـ٣٧] .

وشاء الله تعالىٰ أن يجري علىٰ يديها الآيات ، ليكون حملها من غير زوج!! :

﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَىَّ

هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا ۚ وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾ ۞ فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾ فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾ فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِى قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾ فَكُلِى وَٱشْرَبِى وَقَرِّى عَيْنًا ۖ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِىٓ إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴿٢٦﴾ فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ ۖ قَالُوا۟ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ ۖ قَالُوا۟ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا﴾ [مريم : ١٦-٣٠] .

وهكذا افترىٰ علىٰ مريم العذراء اليهود ورموها بالفاحشة ، لكن الله طهر ساحتها من فوق سبع سموات :

﴿ بَل طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥٥﴾ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا﴾ [النساء : ١٥٥-١٥٦] .

أجل!

لقد ذكر الله تعالىٰ كل تفصيلات حياة مريم المهمة ، وليس في ذلك أي حرج ، لأن القرآن أكثر من الحديث عن النساء ، وخاصة المواقف التي فيها العبر والدروس .

لكن المهم في المسألة هو اصطفاء الله لمريم ولامرأة فرعون ، وجعلهما نموذجين للاقتداء والتأسي ، وليكون للرجال والنساء في قراءة تراجم حياتهما العبر و . . . ، قال الله تعالىٰ :

﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١١﴾ وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ﴾ [التحريم : ١١-١٢] .

وهكذا عاشت مريم البتول الحياة مع ولدها نبيّ الله عيسىٰ عليه السلام ، ورأت بعينها القلّة الضعاف الذين آمنوا به ، بينما الكثرة الجاحدة والمستهزئة كانت تعاديه ، لكنها كانت العون له ، فهي التي تحضّه علىٰ التعلق بالله ، وعلىٰ الصبر علىٰ ما يقضي به الله ، وعلىٰ اللجوء الدائم لله سبحانه .

ثم رأت بعينها محاولة قتل اليهود له ، وكيفية رفع الله له ، فكانت بالفعل خير أنموذج للاقتداء والتأسي .

فسلام علىٰ مريم العذراء ، وسلام علىٰ ابنها المسيح عليه السلام .

٧ـ الملكة بلقيس :

نموذج آخر يعرضه القرآن علىٰ الناس ليتخذوا منه الأسوة والقدوة ، إنها (بلقيس) الملكة والتي لها قصة مع نبي الله : الملك سليمان عليه السلام :

حمل الهدهد الخبر إلىٰ ملكه سليمان بوجود قوم في اليمن لهم قصص عجيبة ! !

إنهم وملكتهم يسجدون للشمس من دون الله ، فأرسل إليها سليمان بكتاب ، فجمعت كبار وزرائها ومستشاريها وأطلعتهم علىٰ فحوىٰ الكتاب ، وفي هذا دليل واضح علىٰ مدح الله تعالىٰ لهذه الصفة الحميدة عندها ، فهي امرأة حريصة علىٰ الشورىٰ ، وهي امرأة حسنة الإدراك والسياسة ، والاستجابة للحق .

وكان رأي قومها محاربته ، لكنها رأت التفاوض مع سليمان عليه السلام ، واقترحت علىٰ إرسال هدية له ، لترىٰ هل هو ملك أم نبيّ ؟

وأعاد سليمان الهدية وأنذرها بالجيش الجرار الذي سيرسله إليها ، ويشاء الله لها الهداية ، فتصل إلىٰ المفاوضات مع سليمان ، لتنتبه من غفلتها ، وتستجيب لكلمة الحق وتتوب إلىٰ الله تعالىٰ :

﴿ فَلَمَّا جَآءَتْ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُۥ هُوَ وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴿٤٢﴾ وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٤٣﴾ قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِى ٱلصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [النمل : ٤٢-٤٤] .

والقصة مبسوطة في سورة النمل : /٢٣-٤٤/ حيث نرىٰ فيها التفصيل عن حياة الملكة بلقيس ، وعن كيفية تسليط القرآن الكريم علىٰ الجوانب الإيجابية في حسن سياستها في الحياة العامة مع الآخرين ، والتركيز علىٰ جوانب من إبراز شخصيتها ، ليكون في ذلك دروس وعبر .

٨ـ خولة بنت ثعلبة رضي الله عنها :

من خلال المنهج القرآني في إعطاء الصورة الكاملة عن شخصية المرأة ، يوضح مسألة مطالبة المرأة بحقها والدفاع عن قضاياها المصيرية ، وليس في الأمر أي حرج ، بل علىٰ العكس جاء مدح الله تعالىٰ لهذا الجانب ، فلها الحق في المناقشة والمجادلة ، ولها الحق في إبداء رأي ما والدفاع عنه! ولها الحق في معارضة الرجال! ولها الحق في أخذ كل خصوصياتها و . . . !!

في زمن النبيّ ﷺ ، اختلفت (خولة بنت ثعلبة) مع زوجها (أوس بن الصامت) رضي الله عنهما فقال لها : أنت عليّ كظهر أمي ، وهذا يسمىٰ في الفقه (الظهار) وكان حكمه في الجاهلية أشد أنواع الطلاق ، حيث لا رجعة فيه أبداً!!

فحزنت (خولة) لتصرف زوجها الذي تحبه ، لكن ماذا تفعل أمام هذا الأمر ؟

انطلقت إلىٰ رسول الله ﷺ تشكو إليه الأمر ، فما كان من النبي إلا أن قال لها : « ما أراك يا خولة إلا قد حرمت عليه ، ولكن ما عندي في أمرك شيء » .

وراحت تجادل رسول الله ﷺ في ذلك : إن لي منه الأولاد والصغار ؛ فإذا تركتهم إليه ضاعوا ، وإذا ضممتهم إليّ جاعوا ، ثم لم تجد أي نفع في مجادلة رسول الله ، فرفعت الشكوى إلىٰ الله :

اللهم إني أشكو إليك شدة وجدي وما شقّ عليّ من فراقه ، اللهم أنزل علىٰ لسان نبيّك ما يكون لنا فيه فرج!!

واستجاب الله الدعاء ، فاستدعىٰ رسول الله زوجها وقال : « هل تستطيع عتق رقبة ؟ » قال : لا والله ، فقال : « هل تستطيع الصوم ؟ » فقال : لا والله ، فقال : « هل عندك ما تصدّق به ؟ » قال : لا ، قال : « اذهب إلىٰ أم المنذر بنت قيس ، فخذ منها شطر وسق تمراً ، وتصدّق به علىٰ ستين مسكيناً » وفعل ذلك ، وصارت زوجه حلالاً له ، فرضي الله عنك يا خولة بنت ثعلبة[1] :

﴿ قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْ ۖ إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔى وَلَدْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا۟ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ۚ ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ

---

(١) انظر قصة خولة وزوجها في الدر المنثور (٨/ ٦٩ـ٧٥) .

بِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ۝٣ فَمَن لَّمۡ يَجِدۡ فَصِيَامُ شَهۡرَيۡنِ مُتَتَابِعَيۡنِ مِن قَبۡلِ أَن يَتَمَآسَّاۖ فَمَن لَّمۡ يَسۡتَطِعۡ فَإِطۡعَامُ سِتِّينَ مِسۡكِينٗاۚ ذَٰلِكَ لِتُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۚ وَتِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِۗ وَلِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [المجادلة : ١ـ٤] .

إذاً :

هذه بعض النماذج القرآنية التي جاءت ضمن سياق القرآن الكريم ، وفي الواقع هناك نماذج أخرى لم نتحدث عنها ، كالحديث عن أم البشر حواء ، وعن جميلة بنت يسار زوجة أبي البداح والتي أُنزل فيها آية في سورة الطلاق / ٢٢/ وعن جميلة بنت أبيّ ابن أبي سلول والتي كانت كارهة لزوجها ، فأنزل الله تعالىٰ فيها آية في سورة الطلاق / ٢٩/ .

وعن أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط ، والتي نزلت فيها آية في سورة الممتحنة / ١٠/ تتحدث عن المؤمنات المهاجرات. . .

وعن (كبشة بنت معن بن عاصم) والتي كانت زوج (أبي قبيس بن الأسلت) ، والتي أنزل الله بها تشريع عدم عضل النساء ، وذلك في سورة النساء / ١٩/ .

وعن (أم كجّة الأنصارية) والتي الله بسببها جوانب هامة من مسألة الميراث ، وذلك في سورة النساء/ ١٠/ .

وعن المرأة التي قدّمت أغلىٰ ما تملك أمام رسول الله ﷺ ، إنها (ميمونة بنت الحارث) وهبت نفسها للنبي ، فأكرمها الله تعالىٰ ، وذلك في الأحزاب/ ٥٠/ .

كذلك ، لم نتحدث عن (زليخا) امرأة العزيز والتي راودت نبي الله يوسف عليه السلام ، وذلك في سورة يوسف/ ٣٠ـ٣٤/ .

وعن قصة (زينب بنت جحش) رضي الله عنها وزواجها من (زيد) ثم من رسول الله / الأحزاب/ ٣٧/ .

وعن قصة (حادثة الإفك) مع السيدة عائشة رضي الله عنها ، سورة النور / ١٢/ .

وعن قصة المهاجرة الأولىٰ (أسماء بنت عميس) زوجة جعفر بن أبي طالب : / الأحزاب/ ٣٥/ .

كل ذلك يدل وبوضوح علىٰ تركيز القرآن الكريم على تحديد وضبط معالم شخصية المرأة المسلمة ، وليكون في ذلك الدليل الواضح على استقلال شخصيتها . . .

* * *

الفصل الثاني

نماذج نسائية ـ للقدوة الحسنة ـ
في السنة المطهرة

للأسف الشديد ، فعندما يُطرح موضوع استقلالية شخصية المرأة وأهم المجالات التي تتحرك بها ، يرفع المتنطعون لائحة غاضبة يريدون من خلالها حصر المرأة وسجنها في زنزانة هي البيت ، ويحرجون عليها الخروج إلىٰ العمل أو العلم أو المسجد!!!

والطامة الكبرىٰ أنهم يتسلحون بأحاديث نبوية لا يعرفون مدىٰ صحتها ، أو أنهم لا يفهمون الأحاديث وسبب ورودها!! مما تكون النتيجة على عكس المراد ، ولنضرب بعض الأمثلة مما يُشيعه البعض في هذه الأيام :

حديث : « لا تعلموهن الكتابة ولا تسكنوهن الغرف ، وعلموهن المغزل وسورة النور » وهذا الحديث قال عنه الشيخ محمد ناصر الدين الألباني ما يلي :

موضوع : أخرجه ابن حبان في الضعفاء (٢/ ٣٠٢) ، والخطيب (١٤/ ٢٢٤) ، والبيهقي في (شعب الإيمان) : (٢/ ٤٧٧) ، من طريق محمد الشامي . . عن عائشة مرفوعاً .

وقال البيهقي : وهو بهذا الإسناد منكر! وقال الدارقطني : كذاب!

وقال ابن عدي : عامة أحاديثه غير محفوظة! وقال ابن حبان : لا تحل الرواية عنه إلا عند الاعتبار ، كان يضع الحديث! وقال الذهبي في الميزان : كان محمد يسرق الحديث!

وبالتالي فهو يخالف الأحاديث الصحيحة مثل ما رواه الإمام الشوكاني في نيل الأوطار : ١٧٧/٨ عند شرح حديث الشفاء بنت عبد الله قالت : دخل عليّ النبيُّ ﷺ وأنا عند حفصة ، فقال : « ألا تعلمين هذه رقية النملة كما علمتها الكتابة ؟ »

وقال الشوكاني : . . . فيه دليل على جواز تعليم النساء الكتابة ، وأما حديث : « ولا تعلموهن الكتابة . . . » فالنهي عن تعليم الكتابة في هذا الحديث محمول على من يخشى من تعليمها الفساد[١] .

ومنها حديث : « طاعة المرأة ندامة » .

وفي الواقع هو حديث موضوع : رواه ابن عدي . . عن عنسبة بن عبد الرحمن .

لكن علماء الحديث قالوا عن عنسبة هذا : أنه منكر الحديث : وكان يضع الحديث ، ولا يصح ، عنسبة ليس بشيء ، عثمان لا يحتجّ به . . .[٢] .

ومنها حديث « هلكت الرجال حين أطاعت النساء » .

وهو حديث ضعيف : أخرجه ابن عدي (١/٣٨) ، وأبو نعيم في أخبار أصفهان : (٢/ ٣٤) ، والحاكم : (٤/ ٢٩١)[٣] .

---

(١) للتوسع يراجع : سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة : رقم (٢٠١٧) .
(٢) نفسه : رقم (٤٣٥) .
(٣) نفسه : رقم (٤٣٦) .

ووقائع السيرة الطاهرة تثبت عكس هذا المفهوم ، مثالها : أشارت أم سلمة علىٰ النبي ﷺ يوم الحديبية ، وأخذ برأيها .

ومنها حديث : « لولا النساء لعُبد الله حقاً حقاً » .

موضوع ، أخرجه ابن عدي وقال : هذا حديث منكر ، ولا أعرفه إلا من هذا الوجه ، وقال أبو حاتم : يترك حديثه ، منكر للحديث ، كان يفسد أباه ، يحدث عنه بالطامات!

وقال ابن معين : كذاب خبيث ، والحديث أورده ابن الجوزي في الموضوعات![1] .

ومنها حديث : « شاوروهن وخالفوهن » .

أفاد السخاوي أنه لا أصل له مرفوعاً ، ويروى أنه من قول عمر ، وفي ذلك ضعف أيضاً ، وبالتالي فهو يخالف السنة العملية لرسول الله ﷺ .

ومنها حديث : « أعدىٰ عدوك زوجتك التي تضاجعك ، وما ملكت يمينك » .

ضعيف ذكره الألباني في ضعيف الجامع الصغير برقم (٩٣٤) وعزاه إلىٰ مسند الفردوس للديلمي .

وكم يستمسك بعض الوعاظ بأمثال هذه الأحاديث ، وهي لاترقىٰ إلىٰ أدنىٰ درجة من الصحة ، فهذا الأمر مسؤولية من ؟!

والمستشرقون والأعداء الذين يتربّصون بالإسلام الدوائر ، يأخذونا أمثال هذه الأحاديث ، ثم يطنطنون بها ، ويقولون للناس : تعالوا

---

(١) نفسه : رقم (٥٦) .

فانظروا إلىٰ الدين الإسلامي كيف ينظر إلىٰ المرأة ، وكيف عاملها و . . . !!

أيضاً ، هناك طائفة من الأحاديث الصحيحة ، لكن أخذها البعض وفهموها علىٰ عكس المراد ، فأعطت نتائج عكسية ، ومن أمثال ذلك :

ما ورد عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : خرج رسول الله ﷺ في أضحىٰ أو فطر إلىٰ المصلىٰ فمرّ علىٰ النساء ، فقال : « يا معشر النساء ، ما رأيت من ناقصات عقل ودين أذهب للبّ الرجل الحازم من إحداكن » .

قلن : وما نقصان ديننا وعقلنا يا رسول الله ؟ قال : أليس شهادة المرأة مثل نصف شهادة الرجل ؟ قلن : بلىٰ .

قال : فذلك من نقصان عقلها ، أليس إذا حاضت لم تصّل ولم تصم ؟ قلن : بلىٰ ، قال : فذلك من نقصان دينها »[1] .

والمشكلة أن البعض أخذ كلمة (ناقصات عقل ودين) فقط ، وراح يصول ويجول ، مدّعياً أنه اكتشف أمراً أو ممسكاً يمسكه علىٰ الإسلام!!

لكنه منطق الشيطان إذ قال : ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ﴾ [الماعون : ٤] وسكت عن الباقي ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ [الماعون : ٥] .

ولو تأملنا الحديث النبوي الصحيح لوجدنا أن الرسول ﷺ يقرر شيئاً آخر : إنكن أيها النساء ، وعلىٰ الرغم من الحالات التي تمرّ بها

---

(١) الحديث رواه البخاري ومسلم ، وللتوسع يراجع : فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر العسقلاني : ١/ ٤٢١ ، والجامع الصحيح للإمام مسلم : ١/ ٦١ .

إحداكن ، من حمل وولادة وإرضاع ودورة شهرية و...!! فإنكن تغلبن ذوي العقول الراجحة ، فاتقين الله في ذلك .

وأما مسألة شهادة المرأة ففي ذلك أقوال كثيرة ، من ذلك قول العلامة ابن القيم رحمه الله تعالىٰ : (قال شيخنا ابن تيمية رحمه الله تعالىٰ : ﴿ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ ﴾ [البقرة : ٢٨٢] فيه دليل علىٰ استشهاد امرأتين مكان رجل إنما هو لإذكار إحداهما الأخرىٰ إذا ضلّت ، وهذا إنما يكون فيما فيه الضلال في العادة ، وهو النسيان وعدم الضبط ، وإلىٰ هذا المعنىٰ أشار النبي ﷺ حيث قال : « وأما نقصان عقلهن : فشهادة امرأتين بشهادة الرجل » فبين أن شطر شهادتهن إنما هو لضعف العقل لا لضعف الدين ، فعلم بذلك أن عدل النساء بمنزلة عدل الرجل ، وإنما عقلها ينقص عنه ، فما كان من الشهادات لا يخاف فيه الضلال في العادة لم تكن فيه علىٰ نصف الرجل ، وما تقبل فيه شهادتهن منفردات : إنما هي أشياء تراها بعينها ، أو تلمسها بيدها ، أو تسمعها بأذنها من غير توقف علىٰ عقل ، كالولادة والاستهلال ، والإرضاع ، والحيض ، والعيوب تحت الثياب ، فإن مثل هذا لا ينسىٰ في العادة ولا تحتاج معرفته إلىٰ إعمال عقل ، كمعاني الأقوال التي تسمعها من الإقرار بالدَّين وغيره فإن هذه معان معقولة ، ويطول العهد بها في الجملة)[1] .

وقبله رأىٰ ابن حزم رحمه الله تعالىٰ أمثال ذلك ، قال في المحلّىٰ :

(ولا يجوز أن يقبل في الزنى أقل من أربعة رجال عدول مسلمين أو

---

(١) الطرق الحكمية في السياسة الشرعية : ١٦١-١٦٢ .

مكان رجل امرأتان مسلمتان عدلتان فيكون ذلك ثلاثة رجال وامرأتين أو رجلين وأربع نسوة أو رجلاً واحداً وست نسوة أو ثماني نسوة فقط ، ولا يقبل في سائر الحقوق كلها من الحدود والدماء وما فيه القصاص والنكاح والطلاق والرجعة والأموال إلا رجلان مسلمان عدلان أو رجل وامرأتان كذلك أوأربع نسوة كذلك ويقبل في كل ذلك حاشا الحدود رجل واحد عدل أو امرأتان كذلك مع يمين الطالب ، ويقبل في الرضاع وحده امرأة واحدة عدلة أو رجل واحد عدل) [1] .

وقال العلامة ابن رشد رحمه الله تعالىٰ : (فالذي عليه الجمهور أنه لا تقبل شهادة النساء في الحدود ، وقال أهل الظاهر : تقبل إذا كان معهن رجل وكان النساء أكثر من واحدة في كل شيء علىٰ ظاهر الآية .

وقال أبو حنيفة : تقبل في الأموال وفيما عدا الحدود من أحكام الأبدان مثل الطلاق والرجعة والنكاح والعتق ، ولا تقبل عند مالك في حكم من أحكام البدن .

وأما شهادة النساء مفردات ، أعني النساء دون الرجال فهي مقبولة عند الجمهور في حقوق الأبدان التي لا يطلع عليه الرجال غالباً ، مثل الولادة والاستهلال وعيوب النساء ، ولا خلاف في شيء من هذا إلا في الإرضاع)[2] .

وهناك شيء آخر ، قال العلماء رحمهم الله تعالىٰ :

نقص العقل والدين في النساء هو أمر عام ، وهذا لا يمنع وجود البعض منهن متفوقات في كثير من أمور الحياة . والقرآن تحدث ـ كما

---

(١) المحلّىٰ : ٩/٣٩٦ .

(٢) بداية المجتهد : ٢/٣٤٨ .

رأينا ـ عن بلقيس وزوجة فرعون و.... ، كأمثلة علىٰ امتلاكهن قدرات عالية ، ولربما خارقة في مسائل الثبات والمشورة والحكم وسياسة المجتمع حتىٰ الرجال منه!!

وهذا يدل على جواز تفضيل بعض النساء علىٰ كثير من الرجال ، ورحم الله ابن تيمية عندما قال : فضل الجنس لا يستلزم فضل الشخص ، فربَّ حبشي أفضل عند الله من جمهور قريش!!

ويقول : فهذا الأصل يوجب أن يكون جنس الحاضر أفضل من جنس البادية ، وإن كان بعض أعيان البادية أفضل من أكثر الحاضرة) .[1] .

كذلك ، فقد يكون النقص في جانب ما عند المرأة ، كالجانب العضلي ، بالنسبة إلىٰ الرجل ، لكن يقابله نقص عند الرجل في جانب ما ، مثل تربية الأطفال ، بالنسبة إلىٰ المرأة .

وهكذا ، قد يتفوّق الرجل في الأمور التي تتطلب الاستدلال كالحساب والرياضيات والتخيّل و.. وتتفوّق المرأة في الأمور التي تتطلب الحفظ عن ظهر قلب وما إلىٰ هنالك ، فلكل واحد دور يناسبه في هذا الكون ، وهذه ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الروم : ٣٠] وإلا لو كان الجنس البشري كله ـ رجالاً ونساءً ـ يتصف بما يتصف به الرجال ، فمن الذي يصبر على الأمور التي تتحملها النساء ؟ وخاصة فيما يتعلق بشؤون رعاية الأطفال وتربيتهم...

أجل! لقد كوّن الله جسم المرأة على نحو يتلاءم ووظيفة الأمومة تلاؤماً كاملاً ، وجُهزت المرأة لتكون ربة البيت ، وهذا مالا نراه في الرجل ، كما قال الأستاذ عباس العقاد رحمه الله :

---

(١) اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم : ١٦٤ـ١٦٥ .

ومن الطبيعي أن يكون للمرأة تكوين عاطفي خاص لا يشبه تكوين الرجل ، لأن ملازمة الطفل الوليد لا تنتهي بمناولة الثدي وإرضاعه ، بل لا بد معها من تعهد دائم ومجاوبة شعورية تستدعي شيئاً كثيراً من التناسب بين مزاجها ومزاجه ، وبين فهمها وفهمه ومدارج حسّه وعطفه ، وهذه حالة من حالات الأنوثة شوهدت كثيراً في أطوار حياتها ، ومن صباها الباكر إلى شيخوختها العالية ، فلا تخلو من مشابهة للطفل في الرضا والغضب ، وفي التدليل والمجافاة ، وفي حب الولاية والحدب ممن يعاملها ، ولو كان في مثل سنّها أو سنّ أبنائها ، وليس هذا الخلق مما تصطنعه المرأة أو تتركه باختيارها ، إذا كانت حضانة الأطفال تتمة للرضاع تقترن فيها أدواته النفسية بأدواته الجسدية ، ولا شك أن الخلائق الضرورية للحضانة وتعهد الأطفال أصل من أصول اللين الأنثوي الذي جعل المرأة سريعة الانقياد للحسّ والاستجابة للعاطفة ، ويصعب عليها ما يسهل على الرجل من تحكيم العقل وتقليب الرأي وصلابة العزيمة . . .

أيضاً ، استغلّ البعض حديث رسول الله الصحيح ، ليعلقوا تعليقات لا أصل لها ، فقالوا : الإسلام يعتبر المرأة ضلعاً قاصراً ، ويتهمها اتهامات شنيعة ، فما هي الحقيقة في ذلك ؟

فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « استوصوا بالنساء ، فإن المرأة خلقت من ضلع وإن أعوج شيء في الضلع أعلاه ، فإن ذهبت تقيمه كسرته ، وإن تركته لم يزل أعوج ، فاستوصوا بالنساء »[1] .

---

(١) صحيح مسلم : ٤/١٧٨ ، وللتوسع في شرح الحديث يراجع : فتح الباري لابن حجر العسقلاني : ٧/ ١٧٧ .

قال شرّاح الحديث وعلماء الشريعة الإسلامية :

في هذا الحديث رفع لمكانة المرأة ، لا اتهام لها ، فالرسول ﷺ أوصىٰ الرجال بالنساء ، بل لعلّ الملاحظة القوية : أنه عليه الصلاة والسلام بدأ الحديث بذلك ، وختمه بذلك أيضاً ، وهو من باب التأكيد علىٰ معاملة المرأة معاملة حسنة ، لا لأنها الضعيفة و . . . ، إنما لأنها أكثر وأسرع انفعالاً ، وذلك نتيجة خلق لها بما يلائم عملها من حنانٍ علىٰ الأولاد ، وصبر علىٰ الاستيقاظ ليلاً ولعدة مرات و . . . !!

لكن ـ وللأسف ـ يشارك كثير من المسلمين وخاصة الوّعاظ في مسألة تكريس فكرة اتهام الإسلام بالنظرة الدونية إلىٰ المرأة ، وذلك عن طريق بث مسألة أن المرأة خلقت من ضلع الرجل الأعوج!!!

ومثله حديث رسول الله ﷺ والذي رواه ابن عباس رضي الله عنهما ، وفيه قول رسول الله : « إني رأيت الجنة فتناولت منها عنقوداً ولو أصبته لأكلتم منه ما بقيت الدنيا ، ورأيت النار فلم أر منظراً كاليوم قط أفظع ، ورأيت أكثر أهلها من النساء . قالوا : بم يا رسول الله ؟

قال : بكفرهن .

قيل : يكفرن بالله ؟

قال : يكفرن العشير ويكفرن الإحسان ، لو أحسنت إلىٰ إحداهن الدهر كله ، ثم رأت منك شيئاً قالت : ما رأيت منك خيراً قط »[1] .

وفي هذا الحديث أيضاً أهداف رائعة ، لكن البعض أساء فهم الحديث ، فقلب الصورة ، ليعطي المعنىٰ المعاكس!!

ليس القصد من الحديث هنا : أن غالبية أهل النار من النساء لأنهن

---

(١) صحيح مسلم : ٣/ ٣٤ .

نساء!! أبداً ، فشبيه ذلك حديث رسول الله الذي رواه البخاري : « اطلعت في الجنة فرأيت أكثر أهلها الفقراء » فهم لم يدخلوا الجنة لأنهم فقراء فقط ، إنما عدم امتلاكهم الأموال وزخارف الدنيا خفف من استغراقهم في المعاصي ، وبالتالي كانوا أكثر سكان الجنة ، لأن الأغنياء أنفقوا ـ غالبيتهم وليس كلهم ـ أموالهم هنا وهناك ، وسيقفون للسؤال الدقيق عن المال : من أين ؟ وإلىٰ أين ؟!

وهنا : فالنساء ، لأن بعضهن لا يشكرن ، وبعضهن يبخلن ، وبعضهن يفشين الأسرار ، وبعضهن لا يحملن للأزواج ودّاً فيكفرن العشرة والجميل ، لذلك فهن أكثر أهل النار .

من زاوية أخرى ، فهذا الكلام يفيد شيئاً آخر ، هو تحذير المصطفى ﷺ النساء من الأمور التي توصل إلىٰ نار جهنم ، ولعل هذا من باب الإغلاظ في النصح والترهيب من عواقب الأمور ، ولذلك جاء في السنة ما يفيد أن تكثر النساء من الصدقة والاستغفار ، حتى يتجنبن ما يؤدي إلىٰ نار جهنم . . .

وما أكثر الأحاديث النبوية الشريفة التي أساء البعض ـ عن عمد أو قلّة دراية ـ فهمها ففسروها كما فهموها ، فأتت بنتائج عكسية .

* * *

وأما النماذج النسائية للقدوة الصالحة في السنة المطهرة ، فذلك أمر يطول الحديث فيه ، حيث إن رسول الله ﷺ يتحدث عن وقوفها إلىٰ جوار الرجل ، بل لقد سبقته في كثير من ميادين العمل الصالح ، وتحدث عن مشاركتها له في العلم والعمل والعبادات والاحتفالات والنشاطات السياسية والاجتماعية ومداواة الجرحىٰ وسقاية العطشىٰ في المعارك ، وكذلك في الأسرة و . . . .

وبيّن الرسول ﷺ جانباً مهماً في قوة شخصية المرأة خاصة فيما يتعلق بحقوقها وواجباتها ، فهي راوية لأحاديث رسول الله ، وهي ناقلة للسيرة والتاريخ الأول ، وهي مفسرة للقرآن الكريم ، وهي مداوية ومجاهدة ، وهي مهاجرة ومبايعة وافدة. . . .

لذلك فلنتوقف عند بعض النماذج التي تضيء الطريق ، عسىٰ أن نكون مثل قول الشاعر :

فتشبهوا إن لم تكونوا مثلهم إن التشبه بالكرام فلاح

ففي مجال استقلال شخصيتها وبالتالي مشاركتها الرجال في الحروب ، وذلك لتقوم علىٰ تفقد الجرحىٰ ومداواتهم وتشجيعهم ، وبهذا يبرز دورها الإيجابي ، ويدل على قدرتها على المشاركة في مسائل خطيرة لتحمل المسؤولية وركوب الصعاب ، وبالتالي فعلىٰ الذين يتهمون المرأة بالنقص والخوف والضعف أن يلتفتوا إلىٰ أمثال هذه الأحداث ، بحيث لا يمكن أن يكون الضعيف حارساً في المعركة ، ولا يمكن للخائف أن يدخل معمعة السلاح ليستخرج من قلب المعركة الجرحىٰ ويسقي العطشىٰ ويمرض المرضىٰ ، بل لن يستطيع الضعيف الخائف أن يشارك في قتل الرجال الأشداء!!

تلكم (سمية زوجة ياسر) أم عمار رضي الله عنهم جميعاً ، استطاعت أن تتحدىٰ فرعون هذه الأمة أبا جهل) . حيث العذاب والغلظة ، وحيث الرمال الملتهبة في صحراء الجزيرة العربية وقد أمر بربط أيديهم وأقدامهم. . . ، ولكن أين ضعفك وخوفك ونقصك ياسمية ؟!

لقد أصبحت قوية وعزيزة ، وذلك عندما مرّ الرسول ﷺ عليهم وهم

في العذاب فقال لهم : « صبراً آل ياسر فإن موعدكم الجنة »[1] .

ويكفي المرأة كمالاً أن تكون أول من دخلت في الإسلام امرأة ، وهي السيدة خديجة الكبرىٰ ، وأول من استشهد في سبيل نصرة الإسلام هي امرأة ، وهي السيدة سمية رضي الله عنهن جميعاً .

ولذلك عندما قُتل أبو جهل في معركة بدر ، نادىٰ رسول الله ﷺ عمار وقال له : « يا عمار : قتل الله قاتل أمك »[2] . فرضي الله عنها وأرضاها .

وتلكم الصحابية الجليلة (**نسيبة بنت كعب : أم عمارة**) :

والتي أسلمت منذ البدايات ، وحضرت بيعة العقبة الثانية ، حيث شاركت مع سبعين رجلاً في تلكم البيعة!

وليست مسألة البيعة وقتها أمراً ترفياً ، إنما في المسألة الخطورة كلها ، ونلمح ذلك في قول رسول الله ﷺ في البيعة : « أنتم مني ، وأنا منكم ، أسالم من سالمتم ، وأحارب من حاربتم ، الدم الدم ، والهدم الهدم »[3] .

فأين النقص والخوف والضعف عندها ؟!

وفي غزوة أحد وقفت (**أم عمارة**) أمام رسول الله ﷺ تتلقىٰ النبل دون رسول الله ، حتى أنه قال : « ما التفتّ يميناً ولا شمالاً إلا ورأيتها تدافع عني »[4] .

---

(١) انظره في مجمع الزوائد (٩/ ٢٩٣) وطبقات ابن سعد (٣/ ٢٤٩) وسير أعلام النبلاء (١/ ٤٠٩ـ٤١٠) .

(٢) الإصابة (٤/ ٣٢٧) .

(٣) ذكره ابن هشام في السيرة النبوية (٢/ ٩٢) .

(٤) الإصابة (٤/ ٤٥٧) وطبقات ابن سعد (٤/ ٤١٥) .

وأصيبت بثلاثة عشر جرحاً ، ثم لما رأت أحد صناديد قريش يرعد ويجول ويصول ويقول : دلوني على محمد ، لا نجوت إن نجا!! وقفت في طريقه تريد منعه من الوصول إلىٰ الرسول ، فضربها ضربة قوية فقطعت يدها ، وبعد أن عادت إلىٰ قوتها وخف نزيف دمها عادت إلىٰ المعركة واشتركت في قتل (ابن قميئة) .

وبقيت في حال الدفاع عن رسول الله مع زوجها وابنها ، ولما رأىٰ الرسول جرحها علىٰ عاتقها قال لابنها : « أمك : اعصب جرحها! اللهم اجعلهم رفقائي في الجنة »[1] .

وفي زمن الخليفة أبي بكر رضي الله عنه اشتركت في معركة اليمامة ، وأبلت بلاءً عظيماً ، ولما بلغها أن مسيلمة قد قتل ولدها (حبيب بن زيد) أقسمت بالله أنها لن تغسل شعرها حتىٰ تقتل مسيلمة! وشاء الله أن تشارك مع ابنها (عبدالله) في قتل مسيلمة الكذاب!!

أليس في هذا النموذج الدلالة الواضحة علىٰ مدىٰ استقلالية شخصية المرأة ومدىٰ مشاركتها في الأمور العامة ، بل وأخطر الأمور وهي المعارك ؟!

وتلكم الصحابية (**هند بنت عمرو بن حرام**) :

زوجة عمرو بن الجموح رضي الله عنهم ، اشتركت في غزوة أحد ، فاستشهد زوجها ، وولدها خلاّد ، وأخوها عبد الله ، فلم تجزع ولم تتنحّ ، إنما ضبطت أعصابها ونظرت إلىٰ ما هو أهم من ذلك ، نظرت إلىٰ أحد الشجعان فقالت له : ماذا فعل الرسول ؟

---

(١) المغازي للواقدي (١/ ٢٧٣) وطبقات ابن سعد (٨/ ٤١٥) وسير أعلام النبلاء (٢/ ٢٨١) والسيرة الحلبية (٢/ ٥٠٩) .

قال : هو بخير ، فقالت : كل مصيبة بعد رسول الله جَلَل!!

ولما رأت نور وجه رسول الله فرحت وقالت : يا رسول الله! ادع الله أن يجعلني معهم[1]!!!

أي امرأة هذه أنت ياهند ؟!! إنها شهدت دفن زوجها وابنها وأخيها ، ومع ذلك تطلب من رسول الله أن يدعو الله أن يجعلها معهم!!

أو يستطيع عاقل أن يقول إن في أمثال هذه المرأة ضعفاً أو نقصاً أو خوفاً ؟!!

وتلكم (أم حبيب بنت العاص) الصحابية القرشية :

تحدثنا سيرة حياتها ، أنها لما حضرت معركة اليرموك ، نظرت فرأت الرجال قد انهزموا في أول الأمر ، وكادت المعركة تكون لصالح الروم ، فحملت عمود الخباء في وجوه الرجال الفارين ، وراحت تقول :

قبّح الله رجلاً يفرّ عن حليلته!

قبّح الله رجلاً يفرّ عن كريمته!

وبالفعل انتبه المسلمون إلىٰ ما تقول (أم حبيب) ، وتجمعت أرتالهم ، وانقضوا انقضاضة رجل واحد ، وكتب الله النصر للمسلمين .

إن دور المرأة كان المشاركة في المعارك ، كان الوقوف إلىٰ جانب الرجال حتىٰ في أحلك الظروف ، فهل في هذا أدنىٰ شك علىٰ استقلالية شخصية المرأة ؟!

---

(١) المغازي (١/ ٢٦٥ـ٢٦٦) وأسد الغابة (٤/ ٩٤) والبداية والنهاية (٤/ ٤٣ـ٤٤) والسيرة الحلبية (٢/ ٢٥٨) .

وتلكم الصحابية الجليلة (**حمنة بنت جحش**) رضي الله عنها :

أخت أم المؤمنين زينب ، كانت زوجة (مصعب بن عمير) ، فلما كانت معركة أحد ، خرجت مع المسلمين للقتال ، وقد حدّث المؤرخون أنها أبلت بلاءً لا مثيل له!

لقد كانت تغشىٰ المعركة فتحمل الجريح والدماء تسيل منه ، وتوصله إلىٰ خارج ساحة المعركة ، وتعطيه ماء الشرب ، وتضمد جراحه ، ثم تعود إلىٰ الجريح الآخر ، وبسبب ذلك فقد تعرّضت لأكثر من طعنة وضربة .

وفي نهاية المعركة رأت بأم عينيها استشهاد زوجها (مصعب) ، فرضيت بقضاء الله وقدره ، واحتسبت ذلك عند الله ، فعوّضها الله بزوج آخر هو (طلحة بن عبد الله) وهو أحد المبشرين بالجنة ، وهكذا شاء الله أن تحضر مع رسول الله ﷺ أكثر الغزوات ، حتىٰ في خيبر فقد أبلت بلاءً شديداً .

فهل في ذلك أدنىٰ شك علىٰ أن المرأة في صدر الإسلام عاشت مستقلة الشخصية وشاركت الرجال في جميع المواقع ، حتىٰ الخطيرة منها ؟!

وتلكم الصحابة الجليلة (**أم حرام بنت ملحان**) زوجة (عبادة بن الصامت) رضي الله عنهم جميعاً :

دخل عليها رسول الله ﷺ ذات يوم ، فأطعمته ، فاستلقىٰ فنام قليلاً ، ثم استيقظ وهو يضحك ، فسألته عن سبب ضحكه ، فقال :

« عُرض عليّ أناس من أمتي يركبون ظهر البحر الأخضر كالملوك علىٰ الأسّرة ».

قالت : فقلت : يا رسول الله : ادع الله أن يجعلني منهم ، ثم نام ، فاستيقظ وهو يضحك ، فقلت : يا رسول الله : ما يضحكك ؟

فقال : « عُرض عليّ ناس من أمتي يركبون ظهر البحر الأخضر كالملوك علىٰ الأسّرة ».

قلت : يا رسول الله! ادع الله أن يجعلني منهم ، قال : « أنت من الأوّلين »[1] .

أرأيت إلىٰ أمنية هذه المرأة المسلمة ؟

إنها لم تحلم بالقصور الفخمة أو السيارات الفارهة أو الأرصدة في بنوك عربية أو أجنبية!! إنما كانت أمنيتها وأحلامها تدور حول الاشتراك في معركة بعيدة علّها تكون من الشهداء .

وشاء الله سبحانه أن يحقق أمنيتها ورغبتها ، فلما كان عهد معاوية بن أبي سفيان ، وهو أمير الشام زمن خلافة عثمان ، خرجت مع زوجها (عبادة) وركبت البحر ، ولما وصل الجيش الإسلامي إلىٰ جزيرة قبرص استشهدت السيدة (أم حرام) ودفنت هناك ، وما زال قبرها في قبرص شاهداً على مدىٰ استقلالية المرأة المسلمة ومدىٰ مشاركتها الرجال في الأمور العامة ، فرضي الله عنها وأرضاها .

أجل :

لقد وقفت المرأة المسلمة تداوي الجرحىٰ وتواسيهم ، وتشدّ علىٰ أيدي المجاهدين ، ولقد سطر التاريخ صفحات بيضاء عن إحدىٰ الصحابيات واسمها (رُفيدة الأنصارية) حيث كانت لها خيمة في المسجد بهدف مداواة الجرحىٰ .

---

(١) رواه البخاري (٢٧٩٩) ومسلم (١٩١٢) .

ويروي ابن سعد في الطبقات الكبرىٰ ، وابن هشام في السيرة أن سعد بن معاذ رضي الله عنه لما أصيب في غزوة الخندق ، قال الرسول ﷺ للصحب الكرام : « اجعلوه في خيمة رفيدة التي في المسجد حتىٰ أعودَه من قريب »[1] .

وبقي هذا الأمر لرفيدة علماً ومنارةً في سجلات البطولات ، ورحم الله الشاعر أحمد محرم عندما قال :

رفيدة : علّمي الناس الحنانا ... وزيدي قومك العالين شانا
خذي الجرحىٰ إليك فأكرميهم ... وطوفي حولهم آناً فآنا
وإن هجع النيام فلا تنامي ... عن الصوت المردد حيث كانا

ومثلها في ذلك الصحابية الجليلة (الربيع بنت معوذ) رضي الله عنها :

والتي روىٰ عنها البخاري وغيره أنها قالت : كنا نغزو مع رسول الله ﷺ ، ونسقي القوم ، ونخدمهم ، ونرد القتلىٰ والجرحىٰ إلىٰ المدينة .

ولقد حضرت بيعة الرضوان ، والتي عاهد فيها القلّة رسول الله ﷺ علىٰ الموت ، وكانوا بحقٍّ صادقين في ذلكم العهد ، لذلك نالوا الأوسمة القرآنية الرائعة ، من ذلك قول الله تعالى :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ۚ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [الفتح : ١٠] .

﴿ ۞ لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴾ [الفتح : ١٨] .

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام (٣/ ٣١٥-٣١٦) .

أفليست في ذلك أدلة ناصعة على مدى مساهمة المسلمة في الأمور العامة ؟!

وتلكم الصحابية الجليلة (**أم زياد الأشجعية**) رضي الله عنها :

اشتركت في غزوة خيبر مع بعض النسوة ، فما رآهن الرسول ﷺ سألهنّ عن سبب خروجهن ، فقلن : يا رسول الله! لقد خرجنا مع الرجال : نداوي به الجرحى ، ونناول السهام ، ونسقي السقاء ، ونغزل الشَّعر ، ونُعين في سبيل الله!!

ولما فتح الله خيبر ، قسم رسول الله ﷺ لهن من التمر وغيره كما قسم للرجال .

وتلكم الصحابية الجليلة (**أم سنان الأسلمية**) رضي الله عنها :

لما كانت غزوة خيبر ؛ جاءت إلى رسول الله ﷺ فقالت : يا رسول الله! أخرج معك إلى القتال ؟ فقال : ولم ؟ قالت : أخرزُ السِّقاء ، وأداوي المريض والجريح إن كانت جراح ، وأُبصر الرَّحل .

فقال رسول الله ﷺ : « اخرجي على بركة الله ، فإن لك صواحبَ قد كلّمنني وأذنتُ لهن من قومك ، ومن غيرهم ، فإن شئت فمع قومك ، وإن شئت معنا » فقالت أم سنان : بل معك يا رسول الله .

فقال : « فكوني مع زوجتي أم سلمة »[1] .

أجل : لقد بايعت المرأة على أشد الأمور قسوةً ، كما بايع الرجال الأوائل ، وبذلك ضربت المرأة المسلمة أروع الأمثلة على المشاركة وعلى استقلالية الشخصية .

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام (٢/ ٣٤٢) .

وتلكم الصحابية (**أميمة بنت رقيقة**) رضي الله عنها :

يذكر ابن حجر العسقلاني في الإصابة وغيره قول (أميمة) رضي الله عنها :

أتيت رسول الله ﷺ في نسوة من الأنصار ، فقلنا : نبايعك يا رسول الله ، علىٰ ألا نشرك بالله شيئاً ، ولا نسرق ، ولا نزني ، ولا نقتل أولادنا ، ولا نأتي ببهتان نفتريه بين أيدينا وأرجلنا ، ولا نعصيك في معروف .

فقال الرسول صلوات الله عليه : فيما استطعتُن وأطَقتُن .

فقلنا : الله ورسوله أرحم بنا من أنفسنا .

وبايعت النسوة رسول الله ﷺ علىٰ هذه الأمور ، وفي ذلك الدليل الواضح علىٰ مدىٰ استقلالية المرأة ومشاركتها في كثير من المجالات العامة[1] .

وتلكم الصحابية (**أم رعلة القشيرية**) رضي الله عنها ، لها قصة عجيبة يرويها ابن حجر في الإصابة ، وابن الأثير في أسد الغابة وغيرهما ، وملخصها :

أن (أم رعلة) دخلت علىٰ رسول الله ﷺ ، وكانت امرأة ذات لسان وفصاحة فقالت : السلام عليك يا رسول الله ، ورحمة الله وبركاته ، إنا ذوات الخدور ، ومحلّ أُزُر البُعُول ، ومربيات الأولاد ، ولا حظّ لنا في الجيش ، فعلّمنا شيئاً يقربنا إلىٰ الله عز وجل .

فقال عليه الصلاة والسلام : « عليكن بذكر الله آناء الليل وأطراف النهار وغض البصر وخفض الصوت » .

---

(١) الإصابة (٤/ ٢٤٠) .

فقالت : يا رسول الله : إني مقيّنة[1] ، أقيّن النساء وأزينهن لأزواجهن ، فهل هو حُوبٌ[2] فأثبّط عنه ـ أتركه ـ ؟

فقال رسول الله : « يا أم علة! قيّنيهن ، وزينهنّ إذا كسدن »[3] .

وتلكم الصحابية الجليلة (أسماء بنت يزيد بن السكن) رضي الله عنها :

وفدت إلىٰ رسول الله ﷺ وهو في مسجده بين أصحابه ، فوقفت وقالت : يا رسول الله! أنا وافدة النساء إليك! إن الله عز وجل بعثك إلىٰ الرجال والنساء كافة فآمنا بك وبإلهك ، وإنا معشر النساء محصورات مقصورات . قواعد بيوتكم ، ومقضىٰ شهواتكم ، وحاملات أولادكم!

وإنكم ـ معشر الرجال ـ فُضلتم علينا في الجُمع والجماعات ، وعيادة المرضىٰ ، وشهود الجنائز ، والحج بعد الحج ، وأفضل من ذلك الجهاد في سبيل الله عز وجل ، وإن الرجل منكم إذا خرج حاجاً أو مجاهداً ، حفظنا لكم أموالكم ، وغزلنا أثوابكم ، وربيّنا لكم أولادكم ، أفلا نشارككم في هذا الأجر ؟!

فالتفت النبي ﷺ إلىٰ أصحابه بوجهه كله ثم قال : « هل سمعتم بمقالة امرأة قط أحسن من مسائلها في أمر دينها من هذه ؟ »

فقالوا : يا رسول الله ، ما ظننا أن امرأة تهتدي إلىٰ مثل هذا!!

فقال لها رسول الله : « افهمي أيتها المرأة ، وأعلمي من خلفك من النساء ، أن حُسن تبعّل المرأة لزوجها ، وطلبها مرضاته ، واتباعها

---

(١) أي تعمل في مجال تزيين النساء ، وهو ما يطلق عليه اليوم : (كوافيرة) .
(٢) أي : إثم ، وفي ذلك يقول تعالىٰ ﴿إنه كان حوباً كبيراً﴾ .
(٣) الإصابة (٤/٤٤٩ـ٤٥٠) .

موافقته يعدل ذلك كله » فانصرفت وهي تهلّل[1] .

أي موقف رائع هو هذا الموقف الشجاع ، حيث وقفت أمام الصحابة وأمام رسول الله ﷺ . وراحت تطالب بحقها وحق النساء ، وتطلب ما قد يتصوره الرجال حكراً عليهم!!

ودار الزمن دورته ، لتكون معركة اليرموك ، فما كان منها إلا أن حملت خباءها ، وقتلت به تسعة من الروم ، فرضي الله عنها وأرضاها .

. . . وفي التاريخ الإسلامي وكتب السيرة والتراجم نماذج كثيرة عن أمثال هذه النساء ، وفيها الأدلة الواضحة علىٰ مدىٰ استقلالية المرأة ومدىٰ مشاركتها في الحياة العملية[2] .

وأما في مجال رواية الأحاديث الشريفة والسيرة النبوية والأحداث التي جرت في العهد الأول ، فيكفي أن نقرأ في مسند الإمام أحمد بن حنبل عن كمية الأحاديث النبوية التي روتها السيدة عائشة رضي الله عنها ، وكذلك فاطمة بنت أسد ، وأم معبد الخزاعية ، وسائر أمهات المؤمنين ، والشفاء بنت عبد الله ، وغيرهن كثير .

بل إن بعضهن كالسيدة عائشة كانت تردّ بعض الفتاوىٰ التي صدرت عن كبار الصحابة ، وقد جمع الإمام الزركشي ذلك في كتابه (الإجابة لإيراد ما استدركته عائشة علىٰ الصحابة) ، وهذا يدل علىٰ حرص

---

(١) الاستيعاب (٤/٢٣٣) وأسد الغابة (٥/٣٩٨-٣٩٩) والسيرة الحلبية (١/١٤٩) .

(٢) للتوسع يراجع : سير أعلام النبلاء للذهبي ، الإصابة لابن حجر العسقلاني ، الاستيعاب لابن عبد البر ، تاريخ الطبري ، سيرة ابن هشام ، الطبقات لابن سعد ، النساء شقائق الرجال للمؤلف .

المرأة المسلمة علىٰ العلم والتعلم ، وعلىٰ مدىٰ ثقة العلماء وخاصة علماء الجرح والتعديل في الأخذ عن النساء المسلمات ، وهذا يؤكدّ بوضوح علىٰ الأمانة والضبط العلمي عند المرأة .

وكذلك ، ففي مجال الهجرة من بلاد الكفر إلىٰ الحبشة ثم إلىٰ المدينة المنورة وتحمّل الصعاب في الطريق وما إلىٰ هنالك ، فقد سطر التاريخ صفحات ناصعة جمعت بين الرجال والنساء في كفة واحدة ، ومن أمثال هؤلاء :

فاطمة بنت قيس ، وأم حبيبة بنت أبي سفيان ، وأم سلمة ، وأسماء بنت عميس ، وليلىٰ بنت أبي حثمة ، وغيرهن كثير .

وفي مجال حضانة الأطفال وتربيتهم علىٰ ما يرضي الله ويرضي رسول الله ﷺ برزت نماذج رائعة ، لو تصفحنا تاريخهن لسمعته ينطق بأفصح لغة وبيان ، في أنَّ المرأة المسلمة نجحت نجاحاً باهراً في مجال التربية ، ومن أمثلة ذلك :

حليمة السعدية ، والشيماء بنت الحارث ، وأم أيمن ، وأم هانىء ، ولبابة بنت الحارث ، وأروىٰ بنت عبد المطلب ، وغيرهن كثير .

أجل :

لقد طالبت المرأة رسول الله ﷺ بأن يجعل لها ولمثيلاتها أياماً يتعلّمن فيه الحديث والفقه والتفسير وأمور الدين والدنيا ومزيداً من العلوم ، ورفضت المرأة المسلمة الزوج الذي اختاره لها والدها دون إذنها ، وتقدمت بشكوىٰ إلىٰ رسول الله طالبة فسخ ذلك العقد الباطل!! بل وقفت المرأة المسلمة وأمام الرجال تختار الشاب الذي تراه مناسباً لها وتعرض نفسها عليه!!

وتمسكت المسلمة بحقها الذي وهبها إياه رسول الله في حضور

الصلاة وسماع القرآن ومشاهد الذكر في المسجد ، غير عابئة بما طرحه بعض الرجال من باب الغيرة ليمنعهن من ذلك ، وليت البعض من الرجال اليوم يسمعون أمثال ذلك!!

وكذلك عملت المرأة المسلمة في بعض الحرف اليدوية : كالدباغة وغيرها!

بل عندما استجار مشرك بامرأة مسلمة أجارته ، ثم خرجت إلىٰ المسجد تقول أمام الصحابة ويسمع رسول الله ﷺ ذلك : لقد أجرت فلاناً الفلاني!!

ويوافق رسول الله على ذلك : « قد أجرنا من أجرت يا أمَّ هانىء »[1] .

ووقفت المرأة المسلمة في مجالس الرجال تسمع لمن يتحدث في أمور الدين والدنيا ، وما كان منها إلىٰ أن ردّت عليه ، وحاورته ، وناقشته أمام الرجال ، بل إذا رأت أنه أخطأ ردته إلىٰ جادة الصواب!!

أجل : إن المرأة المسلمة وقفت إلىٰ جوار الرجل المسلم ، تضحي معه بالغالي والنفيس من أجل رفع راية الإسلام ، قدّمت مصاغها ، وقدّمت أولادها ، وشجعت زوجها وإخوتها للانطلاق إلىٰ ساحات الوغىٰ!!

وحملت علوم الدين الحنيف وبلّغتها إلىٰ بنات قومها ، فتعلّمت وعلّمت ، وتفقهت وفقّهت ، وحفظت وحفّظت ، وشاركت في الصلوات والعبادات مع الرجال ، وشاركت في خدمة المجتمع ، سواء

---

(١) المغازي (٢/ ٨٢٩ـ٨٣٠) والدرر (٢٦١) وجوامع السيرة النبوية (١٨٤) وزاد المعاد (٣/ ١٢١) وعيون الأثر (٢/ ١٩٦) وسيرة أعلام النبلاء (٢/ ٣١٣) وتاريخ الإسلام (٢/ ٥٥٥) والسيرة الحلبية (٣/ ٤١) .

كان ذلك في مجالات النشاط الاجتماعي أو السياسي ، فكانت بحق خير ترجمة لحديث رسول الله ﷺ : « النساء شقائق الرجال »[1] .

لكن ـ وللأسف الشديد ـ مع تقادم الزمان ، خرج بعض الغلاة المتشددين ، تارة باسم الغيرة ، وتارة باسم الدين ، يريدون أن يعيدوا المرأة المسلمة إلىٰ ما كانت عليه في الجاهلية الأولىٰ ، لكن نداء الله يصل إلىٰ الأحياء فقط :

﴿ وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ۝٨ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ﴾ [التكوير : ٨-٩] .

* * *

(١) سبق تخريجه .